مخطوط نادر :

جواهر المغاص في معرفة الخواص

للعلامة عبدالله بن علي النعمان الضمدي

يُذْكَر المؤرخ العلامة البَحَّاثة عبدالله بن علي النّعماني الضَّمَدِي بكتابه «العقيق اليماني في تاريخ المخلاف السليماني»[1] الذي فرغ من تأليفه سنة ١٠٥٧هـ ، كما وجدتُهُ على النسخة التي بخطه سنة ١٠٥٨ ونادراً مايُذْكَرُ له كتاب آخر غيره . — وقد وَقَفْتُ على مجلَّدٍ كبير بِخَط العلامة المذكور يضم كل أعماله الكاملة — كما يقولون — وهي عبارة عن كتابين أحدهما «العقيق اليماني» وهو مكتوب بخط المؤلف هكذا : «العقيق اليماني في أخبار المخلاف السليماني» ومايترتب على ذالك من الأخبار والآثار ، تأليف العبد الفقير إلى كرم مولاه القدير ، عبدالله بن علي النُعماني الضَّمَدِي وفقه الله لطاعته وجنبه معاصيه .

← «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» لابن بسام ٥٦٠/٤ (ط . دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٩) .
«روضات الجنات» ، للخوانساري ص٤٦٢ (ط . طهران) .
«زهر الآداب» ، للحصري ١٢٧/١ (ط . دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٧٩) .
«شذرات الذهب» ، للحنبلي ٢٤٦/٣ (ط . مصر) .
«العبر في خبر من غبر» ، للذهبي ١٧٢/٣ (ط . الكويت) .
«كشف الظنون» ، لحاجي خليفة (في مواضع عدة) ، (ط . استانبول) .
«مرآة الجنان» ، لليافعي ٥٣/٣ (ط . مصر) .
«معاهد التنصيص» ، للعباسي ٢٦٦/٣ (ط . مصر) .
«مفتاح السعادة» ، لطاش كبري زاده ١٨٧/١ .
«نزهة الألباء» ، للانباري ص٣٦٥ (ط . مصر) .
«هدية العارفين» ، لاسماعيل البغدادي ٦٢٥/١ (ط . استانبول) .
«وفيات الأعيان» ، لابن خلكان ١٧٨/٣ (ط . دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٨) .

(٢) طبع غير مرة في بلدان مختلفة .
(٣) طبع في مصر وأعيد نشره طباعةً وتصويراً .
(٤) لقد هم الزميل الأستاذ الدكتور علي جواد الطاهر بنشر هذا الديوان الذي حققه معتمداً عدة نسخ مخطوطة ، وكان في النية ان يتولى نشره الأستاذ الدكتور المنجِّد ، ولكنه لم يفعل .
(٥) من منشورات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٨٣م ، حققه وعلق عليه إبراهيم صالح .
(٦) التلفيق في الاستعمال قد أفاد أيضا اختلاق الكذب ووضع الأباطيل وهو الشائع في لغة المعاصرين .
(٧) كتاب التوفيق للتلفيق ص٤٧ .

والكتاب الثاني وهو الجديد في مقالنا هذا أسماه مؤلفه بـ: «جواهر المغاص في معرفة الخواص» لعبده الفقير، إلى كرم الله القدير، الخائف المستجير من عَذاب الله، الفقير عبدالله بن علي بن محمد بن علي بن حسن النّعمان الضَّمَدِي ـ كذا على صفحة العنوان.

هذا الكتاب لم أجد من ذكره من الذين أرّخوا للعلامة الضَّمدي، بل لا أعلم بنسخة غير التي وقفتُ عليها، ولولا أنَّ الكتاب جميعه وجدته مخطوطاً بقلم المؤلف لشككتُ في نِسْبَتِهِ.

وقد افتتحه بعد الحمدلة، والصَّلاة على نبيِّه ﷺ، بقوله: (أما بعد فهذه نبذة في الخواص جمعتها من كتب عديدة)، ثم يسرد مراجعه، وهي كثيرة، تجد النادر منها من كتب أهل اليمن «تحفة الطب» للشيخ يحيى بن أبي بكر العامري الحرضي[٢] و«طرفة الطُب»[٣] يقول في نسبته: للأخ المطهَّر بن علي النّعمان الضَمَدي، وهذا إرشادٌ مفيدٌ يَدُلُّنا على أن إيسم مطهر ليس لَقَباً لمؤرخنا هذا، وإنّما هو اسم لأخيه، وقد وقع كثيراً لبعضهم تسميته بالمطهر مع اسمه الأساسي عبدالله[٤]... وكتب أخرى رجع إليها لَعَلَّ أهمّها وأنفسها كتاب «المقالات في أصول الديانات»[٥] لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي المتوفي سنة ٣٤٦ الذي يُعَدُّ في عداد المفقودات.

وكتابنا هذا من الكتب الموسوعية التي تضم علوماً جَمَّة، يَعتمد على الترتيب الأبجدي، وهو على شاكلة «خريدة العجائب» لابن الوردي ونَحْوه، إلا أنَّ الميزة في كتابنا هذا تأتي فيما أضافه المؤلف من عنده من خبرات ومشاهدات تتعلق ببلده تهامة.

ورتَّبَهُ على فصول: منها فصل في الحيوان والنبات والمعادن، وفصل في خواص القرآن وآخر في خواص الأسماء، ورابع في السيرة، والفصل السَّابع في البحار، والثامن في العيون والأنهار والآبار، والتاسع في الجبال، والعاشر في البلدان، والحادي عشر في خواص البلدان، والثاني عشر في أشياء عدَّها الأطباء من السُّموم، والثالث عشر في فصحاء العرب، والرابع في بَدْءِ الخلق وأشراط الساعة.

وهذه الفصول ــ كما ترى ــ شاملة متنوعة . وسنبتدئ بأكبر الفصول وأهمها ، وهو فَصل الحيوان والنّبات والمعادن ، وقد رتّبهُ على حروف المعجم ، وابتدأ فيه بالإنسان وقد أطال فيه ، وله في ذالك عذر يقول: (وقد أطلنا الكلام في ترجمة الإنسان ، وخرجنا عن المقصود والمراد في هذا المختصر الاقتصار على ذكر الخواص دون غيرها ، وذالك لشرف الإنسان على الحيوان والحديث شُجُونٌ) .

فالمؤلف بنى كتابه على الاختصار ، وجعله في ذكر خواص الأشياء ، فهو قد جمع فيه بين الطّب وعلوم الكيمياء والجغرافيا ، وخاصة في المواد التي تتعلق بتلك العلوم ، ــ أنظر على سبيل المثال المواد التي تطرقها من عالم الحيوان فَسَتَجِدُه تناول حيوانات مرتّبة أسماؤها على حروفها منها : الأسد ، الإبل ، الأتان ، الأرنب ، الأروبة ، الأساريع ، الإصلة ، الإيّل ، الأفعى ، الإوزّ ، ايس ، ابن آوى . فهذا من حرف الألف من مادة الحيوان .

أما النبات فهي: الأرز ، الإجاص ، الآس ، الأترج ، الأفيون ، الأثل .

وفي المعادن الأُسْرُبُّ .

ثم يتناول بقية الحروف الهجائية فيبتدئ بالحيوان ثم النبات فالمعادن ، وهكذا ، وهذا الفصل من أوسع أبواب الكتاب ، وكأنه أَلّفَهُ مُسْتَقِلاً ، ثمّ أَلْحَقَ به بقية الأبواب الأخرى المشار إليها آنفاً .

والطُريف في الكتاب أنه يشرح بعض الحيوانات والمعادن والنّبات بأسمائها عند أهل تهامة الدّارجة عندهم ، فيقول عن ابن آوى : (ضرب من السباع ، وهو المخنق بلغتنا في تهامة) . والبقلة الحمراء هي الرجلة ، والحمّص هو الصّنبري ، والرازيانج هو الشّهار ، وحب الرُشاد هو الحرف ، والسّذاب من المعادن هو الطوق ، ودم الأخوين هو العندم ، والشفنين هو النهام والعدس ثم البلسن ، والمشمش: البرقوق ، والمرتك: الخبث، والْهَيْلُ : القاقلّة ، وهكذا .

وربما أضاف إلى الباب شيئاً من تجاربه ومشاهدته في تهامة ، فهو يقول في مادة (حية): (ومن الحيّات: ذوات القرون ، قلت: بل قد شاهدناه ببلدنا عيانا غير مرة) .

ومن تجاربه مايُصَحِّحُ بها كتب الطّب التي ينقل عنها ، فهو يستَدْرِكُ على الأزرق صاحب كتاب «تسهيل المنافع» في قوله عن الدخن: هو باردٌ يابس ، وقيل حارٌ خاصته يهيج السوداء) إلخ بنقد يردّ عليه هذا القول بحجة ينقلها عن كتب الطبّ ، ويقول: (لايكون طبع الشيّ حار بارد ولعله سهو من الشيخ ولا يَسْلم من الخطإ إلا كتاب الله) .

ويعلل بعض الأسماء فَيُعْمِلُ فِيها فكره وعلمه فيقول في مادة (طُبَّاق): (الطُّبَّاق اسم عربي ، ولعلّ العجم لكُنته بألسنتها ، فقلبت الطاء تاء والقاف كافاً ، ثم لما فشى هذا الاسم في العرب ، وقد غلب عليه تلكين (كذا) العجم فعرّبته العرب بألسنتها فقالوا: تنباك أي زادوا نوناً قبل الباء الموحدة والله أعلم) . فهذا بعض من اجتهاده في تعليل الأسماء الأعجمية يُسْتَدَلُّ منه على فطنة المؤلف وعلمه على أن أهمّ مايلفتِ النّظر في كتاب علامتنا الضَّمَدِيِّ هو صدق العبارة وأمانة النّقل ، ونادراً ماتَجِدُهُ ينقل نَصّاً دون أنْ يَعْزُوَهُ إلى صاحبه ، وقد نَبَّهَ على ذالك بقوله في مقدمة كتابه: (وقد الْتَزَمْتُ أنْ أُسْنِدَ كل قول إلى قائله: وإلى الكتاب الذي نقلتُ منه ــ إن شاء الله ــ وربما يحصل السهو مني عن ذكر المؤلّف والمؤلَّف نَادِراً) . فهذه ذَرْوَةُ الأمانة العلمية التي تَحَلَّى بها علاّمتنا رحمه الله وربما افْتَقَدْنَاها كثيراً في أنْدَادِهِ من معاصريه ، والمتقدمين عليه من العلماء السابقين الذين كانوا يَسْتَلُّونَ كُتُباً بِرُمَّتِهَا مُتعمِّدِيْنَ السَّرقة والإختلاس ، فالله المستعان .

وكان من إفادة التَّنبِيهِ على مراجِعِهِ أنْ دَلَّنَا على مراجع مُهِمَّةٍ نَبْحَثُ عنها وقد أشَرْنَا إلى بعضها فيما سبق ، وقد تتبعته في نَقله عن «شمس العلوم» لنشوان الحِمْيَرِيّ فوجدتُهُ يَرْصُدُ نَباتَاتِهِ ومعادِنِهِ التي ذكرها في معجمه ، وهي هذه :

الآس ، الأثل ، الحلتيت ، الحصص ، الرَّيحان ، الزّنجبيل ، الزئبق ، السذاب ، السعد ، الشبرم ، العنبر ، الورد ، الورس ، فهذه أسماء النباتات والمعادن التي ذكرها صاحب «شمس العلوم» كما نَبَّه على ذالك المؤلِّف ولعله ترك أخرى ومن الغريب أني وجدتُ المؤلف ينقل نَصّاً فَرِيداً من «تاريخ صنعاء» لم أجِدْهُ في المطبوعة التي نَشَرها الدكتور حسين بن عبدالله العَمْرِيُّ ، يقول في أثناءِ

الحديث عن النّسناس: (وهو خَلْقٌ على صورة الناس) ، يقول: وفي «تاريخ صنعاء» أن رَجُلاً دخل بلادهم فرآهم يَثِبُونَ على رِجْلٍ واحدةٍ ، ويصعدون الشّجر ، ويَفِرُّوْنَ من الكلاب أن تأكلهم ، وسمع واحداً منهم يقول شعراً :

فَرَرْتُ مِنْ خَوْفِ الشُّرَاةِ شَدًّا إِذْ لَمْ أَجِدْ مِنَ الفِرَارِ بُدًّا
قَدْ كُنْتُ قِدْماً في زَمَانِي جَلْدَا فَهَاأَنَا اليَوْمَ ضَعِيفٌ جِدًّا

قلتُ لعل هذا النقل مأخوذ من «تاريخ صنعاء» لابن جرير ، وهو من الكتب المفقودة والله أعلم(٦).

ويبقى أمامنا من أبواب الكتاب المهمة باب البلدانيات وهو من الفصول الجيّدة الواسعة التي شملت الحديث عن أمهات المدن والبلدان ، وقد تحدث فيها عن أرض المغرب ، ومن بلدانها المذكورة في كتابه: السُّوسُ الأقصى ، وباردونت ، ورَقَّادة ، وأَغْمات ، وفاس ، وطنجة ، والقيروان ، ثم تحدَّث عن مدن الغرب الأوسط ، ومنها أشبونة ، وغرناطة ، وقرطاجنة ، وشاطبة ، ومن مدن الغرب الأدنى برقة ، ثم انحدر إلى أرض مصر ، وعقد لها فصلاً كبيراً تحدَّث فيه عن تاريخها وخصائصها أغلبه منْقول من تاريخ السّيوطي ــ لعله «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» . ومن مدن مصر التي أفردها بالحديث: الفسطاط ، والقاهرة ، وعين شمس ، وقليوب ، ثم اتجه إلى فلسطين وذكر من مدنها: بيت المقدس، وأريحا ، ومن مدن الشام عموماً : طبرية وبعلبك ، وحلب ، وبلدان أخرى نوردها سرداً: بلاد الأرمن ، خلاط ، نصيبين الموصل ، المدائن ، الكوفة ، واسط ، طبرِسْتان ، الديلم خوارزم ، سمرقند ، الأهواز ، أرض الصغد ، أرض فرغانة ، التبت ، وبلدان أخرى ليس فيها نَقْلاً جَيِّداً يذكر ، وإنما غالِبُهُ مُسْتَوْعب من كتاب «خريدة العجائب» لابن الوردي ، وهو كتاب شعبي ليس بِذي بال .

على أنه عندما وقف على تهامة وماحولها أطال الوصف وأفاد النقل ، وقد عاب على صاحب «الخريدة» أنه لم يذكر من بلدان التُّهايم سِوَى زَبِيدَ وعَدن ، يقول: ولم يذكر صاحب «الخريدة» من مدن تهامة سوى زَبيد وعدن . . . ولم يذكر على

التخصيص غير زبيد وعدن وذالك كثير عليه لبعد أرضه وعدم معرفته باليمن وأهله فاستوفينا الكلام على اليمن (وصاحبُ الْبَيْتِ أدْرَى بِالَّذِي فيه) .

وقد جاء حديثه عن اليمن والتّهايم حديث الخبير المُتَمَرِّسِ بأوضاع البلاد يقول عن المخا: (وهي مدينة عظيمة عامرة على ساحل بَحر القُلْزُم، بينها وبين مدينة زَبيد مهب الجنوب مسير يومين ، أو أكثر قليلاً ، وإليها يسافر التجار من جميع الأقطار من الهند ومصر والحبشة والغرب والعراق والشام براً وبحراً ، وإليها تُجلب بَضائع هذه الأقاليم من التحف والنّفائس والأطياب والملابس ، والأدوية والأمتعة والجوارات وأصناف التجارة كلها ، وكانت المراكب متجولة في الزّمن الماضي إلى عدن فلما كان أوائل القرن العاشر تحولَتْ المراكب إلى المخاء المذكور ومضت سائر المنادر[٧] مصا حتى صرف بها الميل في أرض اليمن وغيرها) .

ويقول عن عدن: (وكانت هذه المدينة في زمن ملوك بني طاهر عَينَ البلاد وكرسي عظيم من كراسي اليمن فلما تحولت المراكب إلى المخا كما ذكرنا أولاً تناقصت عدن عن حالها الماضي وهي الآن مدينة لطيفة حسنة كغيرها من المدن) .

ويحدثنا عن مدن تهامة الأخرى فيقول عن صَبْيا ساردا تاريخها وخصائصها : (مدينة عامرة حَسنَة بها أسواقٌ ومزارع كبيرة ومخاليف كثيرة ، ومياه فائضة وهي مدينة حديثة العهد أسسها الأشراف الخواجيين رحمهم الله بعد قين المحماه وحبتر(؟) والحروب الحاصلة بينهم وبين الأتراك وكانوا[٨] الأشراف في أيام هذه الفتنة يسكنون مغارب وادي صَبْيا ثم أجمع رأيهم على سكون(؟) هذه المدينة وعمرت في أسرع وقت ، وضرب بها الأمثال في المتاجر والمصالح والأموال ، وقصدها التجار من جميع الأقطار ، وكانت مُنذُ أُسِّسَتْ مهملة يأكل الضّعيفَ فيها القويُّ حتى تملكها الشّريف أحمد بن الحسين بن عيسى فضبط البلد ضبطاً تضرب به الأمثال ، وحفظها وصان الضّعيف ونكّلَ بالمفسدين وأباد المعتدين ، وقنّن القوانين والجبايات ، وأعطى العطايا المستكثرات وكانت دولته نَيّف وعشرين سنة ، وخلف ولده الشريف الجليل ملك بني الزهراء وحامل رايتهم الكبرى ، أبومحمد الحسين بن أحمد بن الحسين) الخ

ويصف تهامة عموماً بأنَّ: (في سواحلها معادن كثيرة للملح ، وفي جبالها معادن الحديد والكحل والزاج[٩] والمغرة[١٠]. وكان في تهامة اليمن مدائن كثيرة غيرما ذكر منها مدينة حرض ، ومدينة المصبري والخميميَّة فلما ظهرت مدينة صبيا مضت المدائن المذكورة ، وتلاشتْ وخربتْ ، ولم يبق بها أنيس) .

وعن مدينة حَلْي: (مدينة مليحة كثيرة الخيرات والحبوب واللحوم ، والسمن والسمك والمشاميم ، والبيع والشراء ، والقوافل تهبط إليها من الحجاز واليمن والشام) .

ومدينة أبي عريش: (كانتْ هذه المدينة في عصر ولاتها السادة آل قطب الدين مدينة عظيمة طيبة الثرا صحيحة الهواء ، عذبة الماء ، كثيرة الخيرات ، فلما ظهرت مدينة صَبْيَا ضَعُفَتْ) .

ويذكر مدينة صنعاء نقلاً عن صاحب «الخريدة» ويعلق على قوله: (وبها من الزّعفران والورس كثير جداً) يقول: (هذا الكلام صاحب «الخريدة» ولعلّ الزعفران كان بصنعاء في عصره فأما الآن في عصرنا هذا فلا يُعرف الزّعفران بأرض اليمن كافة) .

ويصف صَعْدَةَ ويشير إلى نبذة من تأريخها منذ قيام الإمام الهادي إلى الحق فيها حتى يصل إلى ذكر معادنها فيقول: (وحول مدينة صعدة معدن الحديد تحمله القبائل إلى المدينة فيشتريه الحدّادُوْنَ ويخلصونه ويبيعونه بأثمان كبيرة ، ويحمله التّجار إلى سائر أرض اليمن ولايُعْلَمُ معدنٌ للحديد بأرض اليمن غير هذا) .

وذَمَار عُرِفَتْ بعَقِيْقِها: (يوجد في بعض جبالها وهو لا يُعَادِلُهُ شيءٌ حُسْناً ، ويَصْنَعُونَ منه أهل تلك الناحية خَواتيم العقيق الأحمر اليمني والأَفْصَاصَ وَالسُّبَح ، فيباع بِأغلا الأثمان ، وألزم بعض ملوك الأتراك أهل تلك الناحية فاستخرجوا له من هذا المعدن سُرُوْجاً للخيل وآنيةً للطّعام ، ومداهنَ وغيرها .

وعندما وصل إلى تَعِزّ نَجِدُهُ قَدْ أَطْنَبَ في وصْفها ، والمدح لها بكثر الأسواق والأزهار ، والتجارات والمساجد والمدارس ، وفيها البنفسج العظيم ، الطيِّب

الرائحة يحمل منها إلى سائر الأقطار ، وفيها الفُوّة وهي صِبْغٌ معروف لا يوجد إلاّ باليمن ، ويحمله التجار إلى الهند ،ومصر والشام وغيرها . وفيها الأفيونُ البهواني يحمله أهل الهند إلى أرضهم ، ولهم تَعْوِيلٌ على استبضاعه ، ويربحون فيه أموالاً مستكثرة ويغنيهم عن الأفيون المصري (كذا)!!

ويصف خصائص اليمن عموماً فيقول: (ينسج في صنعاء وزَبيد من ثياب الحَرير الفاخرة الفوط الحسنة التي لا تصنع إلا باليمن ، يحملها التُجار إلى مكة والشّام ، وربما بلغ قيمة الثوب الواحد أربعين دِيْناراً ، فمنها: المحمودي والياقوني والمحمر والقرطاس وحبُّ المسك والراد ، والأقنعة ، ولكل ثوب منها ثمن كبير ، ومن خواص اليمن شجر البُنّ تحمله التجار إلى تخوم الروم ، والعراق والهند والغرب وكذالك الفُوّة كما ذكرنا ، ولا يوجد البُنُّ والفُوّةُ إلاّ بأرض اليمن ، وأهلها ذَوُو أموال واسعة وغنى مفرط) .

وبعد فهذا كتاب «جواهر المغاص» دفعنا إلى التعريف به الجهل به ، وندرة وجوده ، وهو أثرٌ فريدٌ من آثار أبْنَاءِ المخلاف السليماني، يحقُّ لهم ذكره والإشادة به .

صنعاء : عبدالله بن محمد الحبشي

الهوامش :

(١) يعرف أيضاً بكتاب «الوافي بوفيات الأعيان المكمل لغربال الزّمان» استكمل فيه حوادث «غربال الزمان» للعامري من سنة ٧٥١ حتى سنة ١٠٥٧هـ ، وهو كلنا يوجد مُفْنُوناً في مكتبات جامع صنعاء أنظر رقم ٢١٩ تاريخ وأخرى ٢١٨ ، وقد وقفت ـ ولله الحمد ـ على مخطوطة المؤلف بقلمه قال في آخره: انتهى التاريخ المبارك فإن فتح الله بشيء ألحقناه إن شاء الله ، والله الموفق والمعين حرّر بمحروس الشقيري حرسه الله بصالحي عباده بتاريخ شهر ربيع الأول سنة ١٠٥٨ ختمها الله بخير ، ولعلنا سنعود إلى الحديث عنه في صفحات هذه المجلة بمناسبة عثوري على النسخة الأم والله المعين .

(٢) منه مخطوطة بجامع صنعاء (الغربية) برقم ١٢١٦ وأخرى برقم ٩٥ مجاميع ويسمى أيضاً «التحفة الجامعة لمفردات الطب النافعة» أنظر كتابنا «مصادر الفكر الإسلامي في اليمن» ص ٤٩٥ .

(٣) منه مخطوطة بجامع صنعاء برقم ١٠ طب أنظر كتابنا المذكور الطبعة الثانية والمطهر المذكور وفاته سنة ١٠٤٩هـ .

(٤) وقع هذا السهو لكاتب المقال في المصادر ص ٤٣٧ وأيمن السّيّد في «مصادر تاريخ اليمن» ص ٢٣١ ، ←